نشأة الخلافة

دكتور
عبدالله عقيل عنقاوي

الخلافة لغة: كلمة عربية أصيلة من المصدر «خلف» يقال: خلفه في قومه يخلفه خلافة فهو خليفة، ومنه قوله تعالى «وقال موسى لأخيه هرون اخلفني في قومي»(١) ويقال: خلفته إذا جئت بعده، والخليفة: السلطان الأعظم، والجمع خلائف وخلفاء(٢).

واصطلاحاً: هي الزعامة العظمى، وهي الولاية العامة على كافة الأمة، والقيام بأمورها والنهوض بأعبائها(٣). فهي رياسة عامة في أمور الدين والدنيا نيابة عن النبي ﷺ، أو كما يقول ابن خلدون «هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة، فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به»(٤).

وقد ذكر كل من الماوردي وابن خلدون كلمة إمامة مرادفة لكلمة خلافة، وعرف الماوردي الإمامة بأنها «موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا»(٥) وفصل ابن خلدون هذا المعنى بقوله بأنها «تسمى خلافة وإمامة والقائم بها (أي بهذا المنصب) خليفة وإماما. فأما تسميته إماما فتشبيها بإمام الصلاة في اتباعه والاقتداء به؛ ولهذا يقال الإمامة الكبرى، وأما تسميته خليفة فلكونه يخلف النبي ﷺ في أمته»(٦) وقد وردت في القرآن الكريم كلمة خليفة وجمعها خلائف في عدة مواضع: قال تعالى في سورة (ص)(٧) «يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ... الآية»

وقال في سورة البقرة[٨] «وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة...» وقال في سورة الأنعام[٩] (وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ... الآية) على أنه يبدو أن كلمة خليفة وخلائف التي وردت في هذه الآيات لا تحمل المعنى الذي قصد به استعمالها بعد وفاته ﷺ، وهي خلافته في أمته وحراسة الدين وسياسة الدنيا. كذلك لم يؤثر عنه ﷺ نص صريح في مسألة الحكم من بعده وفيمن يكون، وكيف يتم تعيينه، ولكنه ترك أمر المسلمين شورى بينهم ليختاروا من أحبوا.

فقد نقل عن أبي بكر رضي الله عنه قوله: «وددت أني كنت سألت رسول الله ﷺ عن هذا الأمر فلا ينازعه أحد»[١٠] كما نقل عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قوله عند وفاته «إن أستخلف فقد استخلف من هو خير مني، وان أتركهم فقد تركهم مَن هو خير مني» يقول الطبري «فعرف الناس أن رسول الله ﷺ لم يستخلف أحداً»[١١].

وحيث لم يرد نص صريح في الكتاب أو السنة عن الخلافة بمعناها الاصطلاحي المتداول بعد وفاة النبي ﷺ، ولم يستخلف رسول الله أحداً من بعده. كما أنه من الثابت أن العرب في جاهليتهم لم يألفوا في أنظمة حكمهم نظاماً مماثلاً أو شبيهاً بالخلافة، فلنا أن نتساءل: كيف نشأت الخلافة.؟ وقبل أن نجيب على هذا التساؤل، تجدر الإشارة إلى أن عدم وجود نص صريح من الكتاب أو السنة في مسألة خلافة رسول الله ﷺ، قد ترك الباب مفتوحاً للجدل حول الخلافة، والاختلاف فيمن يجب أن تئول إليه والاجتهاد بين علماء المسلمين وفقهائهم في شروطها وواجباتها وكيفية اختيار من يعين لها. يقول الشهرستاني «وأعظم خلاف بين الأمة خلاف الإمامة، إذ ما سل سيف في الإسلام على قاعدة دينية مثل ما سل على الإمامة في كل زمان»[١٢]. فقد اختلف على الخلافة المهاجرون والأنصار، واختلف عليها نفر من المهاجرين أنفسهم، وتطور النزاع على الخلافة فيما بعد تطوراً خطيراً بين الفرق الإسلامية، وظهرت نظريات تتناول الخلافة، اتسم بعضها بالاعتدال وانحرف البعض الآخر وتطرف حتى الإلحاد.

وفي هذا البحث سنحاول أن نلقي الضوء على الظروف والملابسات التي صاحبت

نشأة الخلافة، ونناقش بعض الآراء التي تناولت هذا الموضوع. وسنقتصر في بحثنا على عهد الخلفاء الراشدين، إذ في هذا العصر أرسيت دعائم الخلافة ووضعت القواعد التي تبلورت على أساسها النظريات التي ظهرت فيما بعد عن الخلافة.

نشأت الخلافة وليدة لظروف اقتضتها أوضاع المجتمع الإسلامي في المدينة عقب وفاة النبي ﷺ. ففي عهده اجتمعت في يده جميع السلطات الدينية والدنيوية فهو النبي والمشرع والقائد ورئيس الدولة.

فكان من الضروري بعد أن انتقل النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى، واختتمت بوفاته الرسالات السماوية أن يختار المسلمون لأنفسهم من يجمع شتات أمرهم ويتولى رعاية أمورهم الدينية وتصريف شئونهم الدنيوية دون المساس بجوهر العقيدة التي اكتملت قبل وفاته ﷺ؛ فكان أن نشأت الخلافة. وقد أشار الخليفة الثاني عمر بن الخطاب في خطبة له في مسجد رسول الله ﷺ إلى حقيقة هذه النشأة، وأنها كانت وليدة الصدفة بقوله «أنه قد بلغني أن فلاناً قال: والله لو قد مات عمر بن الخطاب لقد بايعت فلاناً، فلا يغرن امرأ أن يقول: إن بيعة أبي بكر كانت فلتة فتمت، وأنها قد كانت كذلك، إلا أن الله قد وقى شرها وليس فيكم من تنقطع الأعناق إليه مثل أبي بكر»(١٤).

وأشهر الروايات وأكثرها تفصيلاً عن بيعة أبي بكر رضي الله عنه بالخلافة وموقف الأنصار منها، ما رواه الطبري عن أبي مخنف عن عبدالله بن عبد الرحمن بن أبي عمرة الأنصاري. وملخص هذه الرواية «أن النبي ﷺ لما قبض اجتمعت الأنصار في سقيفة بني ساعدة فقالوا: نولي هذا الأمر بعد محمد عليه السلام سعد بن عبادة وأخرجوا سعداً إليهم وهو مريض، فلما اجتمعوا قال لابنه أو بعض بني عمه: إني لا أقدر لشكواي أن أسمع القوم كلهم كلامي ولكن تلق مني قولي فأسمعهموه، فكان يتكلم ويحفظ الرجل قوله فيرفع صوته فيسمع أصحابه فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: يا معشر الأنصار لكم سابقة في الدين وفضيلة في الإسلام ليست لقبيلة من العرب، إن محمداً عليه السلام لبث بضع عشرة سنة في قومه يدعوهم إلى عبادة الرحمن.. فما آمن به من قومه إلا رجال قليل، ما كانوا يقدرون على أن يمنعوا رسول الله ولا أن يعزوا دينه .. حتى

إذا أراد بكم الفضيلة ساق إليكم الكرامة وخصكم بالنعمة فرزقكم الله الإيمان به وبرسوله والمنع له ولأصحابه والإعزاز له ولدينه والجهاد لأعدائه ... (ثم قال) استبدوا بهذا الأمر دون الناس. فأجابوه بأجمعهم أن قد وفقت في الرأي، وأصبت في القول، ولن نعدوا ما رأيت نوليك هذا الأمر .. ثم ترادوا الكلام بينهم، فقالوا: فإن أبت مهاجرة قريش؟ فقالوا نحن المهاجرون وصحابة رسول الله الأولون ونحن عشيرته وأولياؤه فعلام تنازعوننا هذا الأمر بعده. فقالت طائفة منهم فإنا نقول: إذن منا أمير ومنكم أمير ولن نرضى بدون هذا الأمر أبداً، فقال سعد بن عبادة حين سمعها: هذا أول الوهن. وأتىَ عمَر الخبرُ فأقبل إلى منزل النبي ﷺ فأرسل إلى أبي بكر، وأبو بكر في الدار وعلى ابن أبي طالب دائب في جهاز رسول الله ﷺ فأرسل إلى أبي بكر أن اخرج إليه فأرسل إليه، إني مشتغل، فأرسل إليه أنه قد حدث أمر لا بد لك من حضوره فخرج إليه، فقال: أما علمت أن الأنصار قد اجتمعت في سقيفة بني ساعده يريدون أن يولوا هذا الأمر سعد بن عبادة وأحسنهم مقالة من يقول: منا أمير ومن قريش أمير، فمضيا مسرعين نحوهم فلقيا أبا عبيدة بن الجراح فتماشوا إليهم ثلاثتهم ... فجاؤا وهم مجتمعون. فقال عمر بن الخطاب أتيناهم وقد كنت زويت كلاماً أردت أن أقوم به فيهم، فلما أن دفعت إليهم ذهبت لأبتدئ المنطق فقال لي أبو بكر رويداً حتى أتكلم، ثم انطق بعد بما أحببت، فنطق، فقال عمر فما شيء كنت أردت أن أقوله إلا وقد أتى به أو زاد عليه. فبدأ أبو بكر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن الله بعث محمداً رسولاً إلى خلقه ... فخص الله المهاجرين الأولين من قومه بتصديقه والإيمان به والمؤاساةله والصبر معه على شدة أذى قومهم لهم وتكذيبهم إياهم .... فهم أول من عبد اللهفي الأرض وآمن بالله وبالرسول، وهم أولياؤه وعشيرته وأحق الناس بهذا الأمر من بعده، وأنتم يا معشر الأنصار من لا يُنكر فضلهم في الدين ولا سابقتهم العظيمة في الإسلام ... فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا بمنزلتهم فنحن الأمراء وأنتم الوزراء ... قال: فقام الحُباب بن المنذر بن الجموح فقال: يا معشر الأنصار أملكوا عليكم أمركم فإن الناس في فيئكم وظلكم ... أبى هؤلاء إلا ما سمعتم فمنا أمير ومنهم أمير، فقال عمر: هيهات لا يجتمع اثنان في قرن، والله لا ترضى العرب أن يؤمروكم ونبيها من غيركم، ولكن العرب لا

تمتنع أن تولى أمرها من كانت النبوة فيهم وولي أمورهم منهم، ولنا بذلك على من أبى من العرب الحجة الظاهرة والسلطان المبين ... فقام الحباب بن المنذر فقال: يا معشر الأنصار أملكوا على أيديكم فأنتم والله أحق بهذا الأمر منهم فإنه بأسيافكم دان لهذا الدين من دان ... فقال أبو عبيدة يا معشر الأنصار إنكم أول من نصر وآزر فلا تكونوا أول من بدل وغيّر. فقال فقام بشير بن سعد أبوالنعمان بن بشير فقال: يا معشر الأنصار إنا والله لئن كنا أولى فضيلة في جهاد المشركين وسابقة في هذا الدين ما أردنا به إلا رضا ربنا وطاعة نبينا والكدح لأنفسنا، فما ينبغي أن نستطيل على الناس بذلك ولا نبتغي به من الدنيا عرضاً، فإن الله ولي المنة علينا بذلك، إلا أن محمداً ﷺ من قريش وقومه أحق به وأولى، وايم الله لا يراني الله أنازعهم هذا الأمر أبداً. فاتقوا الله ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم. فقال أبو بكر: هذا عمر وهذا أبو عبيدة فأيهما شئتم فبايعوا. فقالا: لا والله لا نتولى هذا الأمر عليك فإنك أفضل المهاجرين، وثاني اثنين إذ هما في الغار، وخليفة رسول الله على الصلاة، والصلاة أفضل دين المؤمنين، فمن ذا ينبغي له أن يتقدمك أو يتولى هذا الأمر عليك، أبسط يدك نبايعك. فلما ذهبا ليبايعاه سبقهما إليه بشير بن سعد فبايعه ... ولما رأت الأوس ما صنع بشير بن سعد وما تدعو إليه قريش، وما تطلب الخزرج من تأمير سعد بن عبادة، قال بعضهم لبعض وفيهم أسيد بن حضير، وكان أحد النقباء والله لئن وليتها الخزرج عليكم مرة لازالت لهم عليكم بذلك الفضيلة، ولا جعلوا لكم معهم فيها نصيباً أبداً فقوموا فبايعوا أبا بكر. فقاموا إليه فبايعوه. فانكسر على سعد ابن عبادة وعلى الخزرج ما كانوا أجمعوا له من أمرهم ... فأقبل الناس من كل جانب يبايعون أبا بكر وكادوا يطأون سعد بن عبادة»(١٥).

وقبل أن نناقش حقيقة موقف الأنصار والنتائج التي ترتبت عليه، سنلم بموقف آخر للمعارضة، وهي المعارضة التي قيل بأنها نشأت من قبل نفر من المهاجرين أنفسهم. يروى ابن هشام أنه «لما قبض رسول الله ﷺ ... اعتزل على بن علي طالب والزبير بن العوام وطلحة بن عبيدالله في بيت فاطمة وانحاز بقية المهاجرين إلى أبي بكر»(١٦). ويقول اليعقوبي «إنه تخلف عن بيعة أبي بكر قوم من المهاجرين والأنصار، مالُوا مع علي ابن أبي طالب منهم: العباس بن عبد المطلب، والفضل بن العباس، والزبير بن العوام،

وخالد بن سعيد بن العاص، والمقداد بن عمرو، وسلمان الفارسي، وأبو ذر الغفاري، وعمار بن ياسر، والبراء بن عازب وأبي بن كعب»(١٧). ويتفق أبو الفدا وابن الوردي(١٨) مع ابن هشام في روايتهما، في حين يشير ابن الأثير إلى اعتزال جميع بني هاشم البيعة لأبي بكر رضي الله عنه فيقول «بقي علي وبنو هاشم والزبير ستة أشهر لم يبايعوا أبا بكر حتى ماتت فاطمة رضي الله عنها فبايعوا»(١٩).

لقد أثار اجتماع سقيفة بني ساعدة وموقف الأنصار في هذا الاجتماع، وكذلك اعتزال نفر من المهاجرين بزعامة علي البيعة لأبي بكر – رضي الله عنهم أجمعين – الكثير من الجدل حول نشأة الخلافة، فحفلت مصادر التاريخ الإسلامي بالعديد من الروايات التي هي في كثير من الأحيان يناقض بعضها بعضاً، كما أسهبت في سرد كثير من المواقف التي يستبعد الباحث أن تكون قد صدرت من صحابة رسول الله ﷺ، خاصة وأنها لا تتفق بأي حال من الأحوال مع ما أثر عن أولئك النفر رضوان الله عليهم من سلوكيات في مواقف أخرى. وقد تجاوز بعض المستشرقين(٢٠) الحد في نقاشهم لخلافة أبي بكر فقالوا: إن موقف أبي بكر وعمر وأبي عبيدة يوم السقيفة كان بناء على مؤامرة مسبقة دبرت بين ثلاثتهم ليتعاقبوا الحكم واحداً بعد الآخر: أبو بكر فعمر فأبو عبيدة. ولهذا استخلف أبو بكر عمر، وقال عمر حين حضرته الوفاة: لو كان أبو عبيدة حياً لعهدت إليه، لأنه أمين هذه الأمة كما قال فيه رسول الله ﷺ.

ولتوضيح موقف المهاجرين الثلاثة: أبي بكر وعمرو أبي عبيدة، وموقف الأنصار، وكذلك علي ومن انحاز معه، رضوان الله عليهم أجمعين، سنتحدث عن كل فريق على حدة، وسنخلص إلى نتيجة حتمية، وهي أن الأمور قد جرت في بيعة أبي بكر مجراها الطبيعي، وإن الخلافة قد نشأت بطريقة لم تكن لتنشأ بغيرها في ظل الظروف التي مرت بها الجماعة الإسلامية إثر وفاته ﷺ.

توفي رسول الله ﷺ يوم الاثنين لليلتين أو لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول، وتكاد تجمع الروايات أن أبا بكر كان يومذاك غائباً عن المدينة عند إحدى زوجاته بمكان يسمى السنح(٢١) (شرقي المدينة) وذلك لتحسن طرأ على صحة النبي ﷺ في اليوم

السابق لوفاته. وأنه قدم على رسول الله ﷺ بعد وفاته فدخل عليه وهو مسجى في ناحية من بيت عائشة فقبله ثم خرج فأبصر عمر بن الخطاب يكلم الناس ويقول «إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ توفى وأنه والله ما مات .. إلى آخره» فأمر أبو بكر عمر بالسكوت ،ثم أقبل على الناس فقال: «أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ... ثم تلا قوله تعالى «وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ... الآية» يقول عمر: والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر يتلوها فعقرت حتى وقعت إلى الأرض وما تحملني رجلاي، وعرفت أن رسول الله ﷺ قد مات»(٢٢) ثم انصرف أبو بكر رضي الله عنه للمشاركة في الاستعداد لتجهيز الرسول ﷺ، ففوجىء بخبر اجتماع الأنصار في سقيفة بني ساعدة ينقله له عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فتوجها سوياً نحو السقيفة ليشهدا الاجتماع، وفي طريقهما لقيا أبا عبيدة فاصطحباه معهما وحضروا جميعاً ذلك الاجتماع الحاسم. وتم ما تم من انتخاب أبي بكر. هذا ما تكاد أن تجمع عليه المصادر عما حدث إثر وفاته عليه الصلاة والسلام. وقبل أن يحسم الموقف في سقيفة بني ساعده.

لقد انطلق المهاجرون الثلاثة في مطالبتهم بأن تكون الخلافة في قريش بصفة عامة وفي المهاجرين بصفة خاصة، من مسوغات عدة هي: أن المهاجرين كانوا هم أول من صدّق وآمن برسالة محمد بن عبدالله ﷺ، وأن قريشاً هم عشيرة محمد وهم بذلك أولى الناس بخلافته، وأنه لا يمكن أن يجتمع اثنان في قرن أي أن يتولى الخلافة اثنان؛ فذلك يؤدي إلى التنازع والاختلاف. وأن العرب لا ترضى أن يولي عليها أحد من غير بيت نبيها ولكنها لا تمتنع أن تولي أمرها من كانت النبوة فيهم: أي قريش التي ينتسب إليها الرسول ﷺ(٢٣).

وانطلق عمر وأبو عبيدة في بيعتهما لأبي بكر بالخلافة من عدة بواعث أيضاً: فهو أول من آمن من الرجال، وهو صاحب رسول الله ﷺ في الغار، وهو من أنابه ﷺ للصلاة بالناس أثناء مرضه، وقد اعتبر عامة الصحابة تفويض النبي ﷺ أبا بكر للصلاة بالناس إشارة صريحة إلى رغبته في استخلافه دون الحاجة إلى النص بذلك(٢٤) وقد نقل عنه ﷺ أنه قال «لا يبقين في المسجد باب إلا باب أبي بكر فإني لا أعلم أحداً أفضل

في الصحبة عندي منه، ولو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً. ولكن أخوة الإسلام»(٢٥) وفي قول آخر «ولكن صحبة إخاء وإيمان حتى يجمع الله بيننا عنده»(٢٦) وإلى جانب ذلك فقد كان أبو بكر أسن الصحابة المؤهلين للخلافة وأكثرهم نفوذاً. يقول المؤرخ الذهبي (وبايع المسلمون بعده (بعد رسول الله) لخليفته على الصلاة بالناس)(٢٧) وقد لخص سعد بن عبادة رضي الله عنه موقف الأنصار من الخلافة

وحجتهم في المطالبة بها في خطبته التي ألقاها في اجتماع السقيفة. وقد بنى حجته على أن: للأنصار سابقة في الدين وفضيلة في الإسلام ليست لقبيلة من العرب، وأن الأنصار هم الذين آووا رسول الله ﷺ ومنعوه وآووا أصحابه من المهاجرين وجاهدوا لإعلاء دين الإسلام حتى استقامت العرب لأمر الله طوعاً وكرهاً. فلهم حق في هذا الأمر فإن لم تكن الخلافة فيهم، فلا أقل من أن يكون منهم أمير ومن المهاجرين أمير(٢٨).

وهنا نلاحظ أن اجتماع السقيفة قد اتخذ طابع النقاش والجدل الموضوعي (أو ما يسمى بلغة عصرنا الحملة الانتخابية) فلم يغمط المهاجرون الثلاثة حق الأنصار، بل قابلوا الحجة بالحجة فقال أبو بكر: بأن المهاجرين هم أول من عبدالله في الأرض وآمن بالله وبالرسول وهم أولياؤه وعشيرته وأحق الناس بهذا الأمر من بعده ... ثم قال «وأنتم يا معشر الأنصار من لا ينكر فضلهم في الدين ولا سابقتهم العظيمة في الإسلام رضيكم الله أنصاراً لدينه ورسوله وجعل إليكم هجرته ... فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا بمنزلتكم فنحن الأمراء وأنتم الوزراء»(٢٩) لقد تعددت الروايات عن اجتماع سقيفة بني ساعدة وما قيل في هذا الاجتماع فاختلط الواقع بالخيال في أذهان بعض الرواة وتعمد البعض تحريف الواقع وإضافة كلمات في أفواه المجتمعين لم تكن لتصدر عنهم مع أن الأمر لا يعدو اجتماعاً لنفر من أجلاء الصحابة لاختيار خليفة يتولى أمور المسلمين بعد وفاة رسول الله ﷺ.

ولنخلص إلى رواية هي أقرب إلى الواقع عما قيل في سقيفة بني ساعدة يمكن أن نضيف إلى رواية الطبري بعد حذف بعض عباراتها ـ ما ذكره ابن كثير عن الإمام أحمد و(أن أبا بكر وعمر انطلقا يتعادان حتى أتوهم (أي الأنصار) فتكلم أبو بكر فلم يترك

شيئاً نزل في الأنصار. ولا ذكره رسول الله من شأنهم إلا ذكره وقال: لقد علمتم أن رسول الله ﷺ قال: لو سلك الناس وادياً وسلكت الأنصار وادياً لسلكت وادي الأنصار. ولقد علمت يا سعد أن رسول الله ﷺ قال ـ وأنت قاعد ـ قريش ولاة هذا الأمر فبر الناس تبع لبرهم وفاجرهم تبع لفاجرهم.

فقال سعد: صدقت نحن الوزراء وأنتم الأمراء»(٣٠) وفي رواية أخرى عن أحمد أيضاً أن عمر رضي الله عنه قال: «يا معشر الأنصار ألستم تعلمون أن رسول الله ﷺ قد أمر أبا بكر أن يؤم الناس فأيكم تطيب نفسه أن يتقدم أبا بكر. فقال الأنصار: نعوذ بالله أن نتقدم أبا بكر»(٣١) لقد كان الأنصار ـ كما قال العقاد رحمه الله ـ «يقضون حق المجاملة لسعد بن عبادة ولا ينوون الزيادة. أو يجدون في الكفاح لانتزاع الخلافة. كانوا مسلمين قبل كل شيء. ولم يكونوا طلاب ملك قبل كل شيء. وكانوا يحسون ما أحسه المسلمون جميعاً. إذ قالوا إن النبي ائتمن أبا بكر على الدين بتقديمه للصلاة فكيف لا يؤتمن على الدنيا. وكانوا يعلمون أن المهاجرين مقدمون في القرآن على الأنصار «والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار...» فلم يكن إيمانهم بحقهم. في الخلافة إيمان من يغضب لفواتها ويستميت في طلبها»(٣٢) فإذا أضفنا إلى ما تقدم. ما كان بين الأنصار أنفسهم من تنافس بين أوسهم وخزرجهم. وأنه لن يرضى فريق أن يسلم أمره إلى الفريق الآخر لأدركنا دون أي التباس أن الأمور قد جرت في سقيفة بني ساعدة مجراها الطبيعي وأن انتخاب أبي بكر كان نتيجة حتمية اقتضاها موقف الجماعة الإسلامية بعد وفاته ﷺ. فإذا ما انتقلنا إلى علي بن أبي طالب ومن انحاز إليه من بني هاشم وغيرهم رضوان الله تعالى عليهم أجمعين. وهم كما تذكر الروايات التي أشرنا إليها. الفريق الثاني من المعارضين لخلافة أبي بكر. فسنجد أن أحداً من هذا الفريق لم يحضر اجتماع سقيفة بني ساعدة ولم يكن عدم حضورهم بقصد مقاطعة هذا الاجتماع. فقد روى أنه حين انطلق أبو بكر وعمر إلى السقيفة أقام على والعباس وابناه الفضل وقثم وأسامة بن زيد يتولون تجهيز رسول الله ﷺ(٣٣) ولم يعلم أحد منهم بذلك الاجتماع.

لقد خاض في موضوع اعتزال على ومن معه من بني هاشم وغيرهم البيعة لأبي بكر

المؤرخون في مختلف العصور، كما خاض في هذا الموضوع فرق الشيعة وفقهاؤهم، وطور الشيعة فيما بعد نظريات مختلفة عن الخلافة ووجوب حصرها في بيت آل الرسول ﷺ، وليس هنا موضع نقاش لما ذهبت إليه آراء هذه الفرق. ولكن ما يهمنا هو أن نستوضح موقف علي رضي الله عنه من الخلافة ومن بيعة أبي بكر.

وخلاصة ما جاء في المصادر عن موقف علي بن أبي طالب من بيعة أبي بكر رضي الله عنهما: أن علياً اعتزل البيعة لأبي بكر في أول الأمر وأنه لم يبايع إلا بعد ستة أشهر من خلافة أبي بكر.

لقد نظر بعض المؤرخين وفقهاء الشيعة إلى تخلف علي عن بيعة أبا بكر إثر وفاة الرسول ﷺ على أنها رفض من جانب علي لخلافة أبي بكر وادعاء بأحقيته في أن يرث الولاية على المسلمين عن رسول الله ﷺ. على أن تلك المصادر نفسها التي تتحدث عن رفض علي لبيعة أبي بكر ومطالبته بالخلافة تعود فتنفي ما ذهبت إليه أولاً: يقول الطبري «كان علي في بيته إذْ أُتي فقيل له قد جلس أبو بكر للبيعة فخرج في قميص ما عليه ازار ولا رداء عجلاً كراهية أن يبطىء عنها حتى بايعه، ثم جلس إليه وبعث إلى ثوبه فأتاه فتخلله ولزم مجلسه» (٣٤) ويقول في موضع آخر «قال عمرو بن حريث لسعيد بن زيد: أشهدت وفاة رسول الله ﷺ؟ قال: نعم، قال: فمتى بويع أبو بكر، قال: يوم مات رسول الله ﷺ، كرهوا أن يبقوا بعض يوم وليسوا في جماعة، قال: فهل خالف عليه أحد، قال: لا إلا مرتد أو من قد كاد أن يرتد لولا أن الله عز وجل ينقذهم من الأنصار، قال: فهل قعد أحد من المهاجرين، قال: لا، تتابع المهاجرون على بيعته من غير أن يدعوهم» (٣٥). ويقول ابن الأثير «لما ولي (أبو بكر) الخلافة وارتدت العرب خرج شاهراً سيفه إلى ذي القصة، فجاءه علي وأخذ بزمام راحلته وقال له: أين يا خليفة رسول الله ﷺ، أقول لك ما قال لك رسول الله ﷺ يوم أحد: شم سيفك ولا تفجعنا بنفسك، فوالله لئن أصبنا بك لا يكون للإسلام نظام، فرجع وأمضى الجيش» (٣٦) ويقول ابن عبد ربه «قيل لعلي: علام بايعت أبا بكر؟ فقال: إن رسول الله ﷺ لم يمت فجأة، كان يأتيه بلال في كل يوم في مرضه يؤذنه بالصلاة، فيأمر أبا بكر

فيصلي بالناس، وقد تركني وهو يرى مكاني، فلما قبض رسول الله ﷺ رضي المسلمون لدنياهم من رضيه رسول الله ﷺ لدينهم فبايعوه وبايعته»(٣٧).

والحقيقة أن عليًّا تخلف عن بيعة أبي بكر رضي الله عنهما. ولكن لم يكن تخلفه عن البيعة ناتجاً عن عدم موافقته أو رفضه لخلافة أبي بكر، بل لقد كان هناك سبب آخر مصدره اختلاف في وجهة النظر. وقد نشأ هذا الاختلاف بعد وفاة النبي ﷺ مباشرة. وكانت بيعة أبي بكر في اليوم الذي توفي فيه عليه الصلاة والسلام، ومن ثم فقد أصبح أبو بكر طرفاً في هذا الخلاف في حين كان علي وزوجته فاطمة بنت رسول الله ﷺ والعباس بن عبد المطلب هم الطرف الثاني. وقد روى هذا الخلاف ابن كثير نقلاً عن حديث ورد في البخاري ... عن عاشئة رضي الله عنها: «أن فاطمة والعباس أتيا أبا بكر رضي الله عنه يلتمسان ميراثهما من رسول الله ﷺ، وهما حينئذ يطلبان أرضه من فدك وسهمه من خيبر، فقال أبو بكر: سمعت رسول الله ﷺ يقول «لا نورث ما تركناه صدقة، إنما يأكل آل محمد من هذا المال «قال أبو بكر: والله لا أدع أمراً رأيت رسول الله ﷺ يصنعه فيه إلا صنعته قال: فهجرته فاطمة فلم تكلمه حتى ماتت»(٣٨) وقد سألت فاطمة أبا بكر أن يعين عليا للنظر في صدقه الأرض التي بخيبر وفدك فلم يجبها إلى ذلك «لأنه رأى أن حقاً عليه أن يقوم في جميع ما كان يتولاه رسول الله ﷺ ... فحصل لها عتب وتغضب...

واحتاج علي أن يراعي خاطرها بعض الشيء، فلما ماتت بعد ستة أشهر من وفاة أبيها رأى علي أن يجدد البيعة لأبي بكر رضي الله عنهما(٣٩). إذاً لم يكن تردد علي في البيعة لأبي بكر ناتجاً عن رغبته في أن يتقدم علي أبي بكر في الخلافة أو أن يرثها عن رسول الله ﷺ، أو أن ينازع ويقاتل من أجلها، أو أن يخرج علي إجماع المسلمين بل لقد كان عاتباً على الصديق رضي الله عنه موقفه من فاطمة رضي الله عنها. وكان عتابه هو عتاب الصديق الصادق، لا خصام العدو الحاقد.

يروى الطبري أن أبا سفيان «قال لعلي ما بال هذا الأمر في أقل حي من قريش والله لئن شئت لأملأنها عليه خيلاً ورجلاً، فقال علي: يا أبا سفيان طال ما عاديت الإسلام

وأهله فلم تضره بذلك شيئاً إنا وجدنا أبا بكر لها أهلاً»(٤٠).

لقد انتخب أبو بكر رضي الله عنه ليخلف رسول الله ﷺ عليه في أمته واشترك في انتخابه نفر من المهاجرين والأنصار، أي صفوة المجتمع الإسلامي آنذاك، وبويع في اليوم التالي لانتخابه بيعة عامة في مسجد رسول الله. وأصبحت طريقة انتخابه منهجاً يحتذى به فيما بعد، فكانت هناك في الخلافتين الأموية ثم العباسية بيعتان: بيعة الخاصة ثم البيعة العامة.

ولم يكن استخلاف أبي بكر لعمر بن الخطاب رضي الله عنهما نتيجة لتدبير مسبق بينهما كما ادعى ذلك بعض فرق الشيعة(٤١) أو بعض المستشرقين(٤٢) فلو كان أبو بكر ممن يتآمر على الخلافة لكان الأولى به أن يسعى لانتقالها إلى أحد أبنائه من بعده. أو أن يختار لها أحداً من رجال قبيلته كطلحة بن عبيدالله، أو غيره ولكن أبا بكر، وقد كان يؤثر مصلحة المسلمين ويضعها فوق كل اعتبار، أراد أن يضمن استمرار الدولة الوليدة فرشح لها من يرى أنه أولى بها من الجميع.

دخل طلحة بن عبيدالله على أبي بكر (وهو في مرض الموت) فقال: استخلفت على الناس عمر وقد رأيت ما يلقى الناس منه وأنت معه، فكيف به إذا خلا بهم وأنت لاق ربك فسائلك عن رعيتك. فقال أبو بكر وكان مضطجعاً: أجلسوني، فأجلسوه، فقال لطلحة: أبالله تفرقني أو أبالله تخوفني، إذا لقيت الله ربي فسائلني قلت: استخلفت على أهلك خير أهلك»(٤٣) ومع قناعة أبي بكر بأن عمر هو خير من يخلفه، فلم يستبد برأيه في ترشيحه له بل أشرف على الناس ـ بعد أن اشتد عليه المرض ـ وهو يقول «أترضون بمن أستخلف عليكم فإني والله ما آلوت من جهد الرأي ولا وليت ذا قرابة، وأني قد استخلفت عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا، فقالوا: سمعنا وأطعنا»(٤٤) ولم يقتصر ترشيحه لعمر على استطلاع رأي الصحابة فيه علنا؛ بل لقد استشار في استخلافه بعض الصحابة سراً ومن بينهم عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان ولم يكن أبو بكر حتى ذلك الوقت على ثقة من موافقة عمر بأن يلي الخلافة من بعده.

يروى الطبري أن أبا بكر عندما اشتد عليه المرض «دعا عثمان بن عفان فقال: يا أبا عبدالله أخبرني عن عمر قال: أنت أخبر به، فقال أبو بكر: علي ذاك يا أبا عبدالله، قال: اللهم علمي به أن سريرته خير من علانيته، وأنْ ليس فينا مثله قال أبو بكر: رحمك الله يا أبا عبدالله لا تذكر مما ذكرت لك شيئاً، قال: افعل، فقال له أبو بكر: لو تركته ما عدوتك، وما أدرى لعله تاركه والخيرة له ألا يلي من أموركم شيئاً...

يا أبا عبدالله لا تذكرن مما قلت لك من أمر عمر ولا مما دعوتك له شيئاً»(٤٥) وقد رئي فيما بعد في طريقة استخلاف أبي بكر لعمر حجة على جواز أن يعين الأمامُ ولياً لعهده من بعده(٤٦).

على أن الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه لم يقلد أبا بكر في تعيين من يخلفه في منصبه، كما أنه لم يترك أمر الخلافة كلية ليختار المسلمون لأنفسهم.

وقد اختلفت الروايات في نقل الوقائع التي جرت بعد أن أصيب عمر بخنجر أبي لؤلؤة المجوسي.

فأشار بعضهم إلى تصريح عمر بأنه كان يرغب أن يستخلف أبا عبيدة بن الجراح أو سالم مولى أبي حذيفة لو كان أحدهما على قيد الحياة(٤٧). وانفرد ابن خلدون برواية لم يصرح بمصدرها: وهو أنه بعد أن طعن عمر «سقط فاستخلف عبد الرحمن بن عوف في الصلاة واحتمل إلى بيته، ثم دعا عبد الرحمن وقال: أريد أن أعهد إليك، قال (عبد الرحمن): أتشير علي بها؟ قال: لا قال: والله لا أفعل، قال: فهبني صمتاً حتى أعهد إلى النفر الذين توفى رسول الله ﷺ وهو عنهم راض»(٤٨). كما أشار آخرون إلى أن عمر قد أبدى رغبته في تعيين علي بن أبي طالب ليخلفه، ولكن أحجم عن ذلك، لأنه لم يرد أن يتحمل مسئولية مسيرة من يأتي بعده، فيتحمل أمر المسلمين حياً وميتاً(٤٩). على أن الرواية التي تكاد أن تجمع عليها مصادر التاريخ الإسلامي: هي التي تذهب إلى أن عمر قد رشح ستة من المهاجرين المبشرين بالجنة لينتخبوا من بينهم من يلي أمر المسلمين بعده(٥٠).

ويبدو أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أراد أن يجمع بين طريقتي سلفيه الكريمين،

فلا يعين أحداً بعينه، وفي نفس الوقت يرشح نفراً يرى أنهم أكثر أحقية من غيرهم بمنصب الخلافة.

وبهذه الطريقة يفسح المجال من بعده للانتخاب وفي نفس الوقت يضيق دائرة الخلاف على المنصب العظيم الذي سيصبح خالياً بعد وفاته. وقد صدق حدس عمر رضي الله عنه فلم تلبث أن ضاقت دائرة المرشحين حتى اقتصرت على اثنين فقط هما عثمان وعلي. وترك أمر البت في أحدهما إلى عبد الرحمن بن عوف. وقد تجلت في انتخاب عثمان أسمى معاني الديموقراطية التي لم يشهدها العالم حتى في عصره الحديث.

يقول ابن كثير «ثم نهض عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه يستشير الناس فيهما (في عثمان وعلي) ويجمع رأي المسلمين برأي رءوس الناس وأقيادهم جميعاً وأشتاتاً. مثنى وفرادى، ومجتمعين سراً وجهراً، حتى خلص إلى النساء المخدرات في حجابهن، وحتى سأل الولدان في المكاتب، وحتى سأل من يرد من الركبان والأعراب إلى المدينة في مدة ثلاثة أيام بلياليها، فلم يجد اثنين يختلفان في تقدم عثمان بن عفان ... فسعى في ذلك عبد الرحمن ثلاثة أيام بلياليها لا يغتمض بكثير نوم إلا صلاة ودعاء واستخارة وسؤالاً من ذوي الرأي عنهم فلم يجد أحداً يعدل بعثمان بن عفان رضي الله عنه(٥١).

وفي اليوم الرابع من وفاة عمر رضي الله عنه دعا عبد الرحمن إلى اجتماع عام وبعث إلى وجوه الناس من المهاجرين والأنصار ونودي في الناس عامة: الصلاة إلى وجوه الناس من المهاجرين والأنصار ونودي في الناس عامة: الصلاة جامعة فامتلأ المسجد حتى غص بالناس، ثم قام عبد الرحمن فأعلن انتخاب عثمان وبايعه، فازدحم الناس يبايعونه حتى غشوه تحت المنبر(٥٢).

وهكذا تمت بيعة عثمان رضي الله عنه بالخلافة بعد جولة انتخابية اشترك فيها ستة من المرشحين، وانتهت بإجماع صفوة الأمة وهم المهاجرون والأنصار على انتخاب واحد

منهم. ومن ثم بويع بيعة عامة لم يعترض عليها أحد، بل شارك فيها زملاؤه من بقية الستة المرشحين وفي مقدمتهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وقد جاءت بيعة علي بن أبي طالب رضي الله عنه مؤكدة لقاعدة انتخاب الخليفة من بين المسلمين. فقد شارك في انتخاب علي وبيعته كافة الصحابة في المدينة من مهاجرين وأنصار، إلى جانب نفر من زعماء الأمصار الإسلامية الذين كانوا متواجدين في المدينة أثناء الفتنة التي أودت بحياة الخليفة الثالث عثمان رضي الله عنه، يقول ابن سعد «لما قتل عثمان رحمه الله، يوم الجمعة لثماني عشرة ليلة مضت من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين، وبويع لعلي بن أبي طالب رحمه الله بالمدينة، الغد من يوم قتل عثمان، بالخلافة بايعه طلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد بن عمر بن نفيل وعمار بن ياسر وأسامة بن زيد وسهل بن حنيف وأبو أيوب الأنصاري ومحمد بن مسلمة وزيد بن ثابت وخزيمة بن ثابت وجميع من كان بالمدينة من أصحاب رسول الله ﷺ وغيرهم»(٥٣).

وهكذا نصل إلى حقيقة ثابتة، وهي أن الخلافة الاسلامية ـ بخلاف ما سبقها من الدول والامبراطوريات التي شهدها العالم القديم، وعالم العصور الوسطى ـ قد نشأت نشأة جمعت بين أفضل أساليب الحكم التي شهدتها المجتمعات البشرية، فكانت شورية انتخابية كما كانت بالتعيين. فطريقة انتخاب الخلفاء الراشدين هي أفضل ما وصل إليه العالم المتمدنين في مختلف العصور.

الهوامش :

(١) القلقشندي ـ مآثر الأنافة في معالم الخلافة. بيروت ١٩٨٠م جـ١ ص٨.
(٢) الجوهري. اسماعيل ـ الصحاح القاهرة ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م جـ٤ ص ١٣٥٣ ـ ٥٦.
(٣) القلقشندي: المصدر السابق ص ٨.
(٤) ابن خلدون ـ المقدمة. بيروت. ص ١٩١.
(٥) الماوردي، أبي الحسن علي: الأحكام السلطانية. القاهرة ١٩٧٨ ص٥.
(٦) ابن خلدون المصدر السابق ص ١٩١.
(٧) آية ٢٦.
(٨) آية ٣٠.
(٩) آية ١٦٥.
(١٠) الطبري ـ **تاريخ الأمم والملوك** القاهرة ١٣٥٧هـ ـ ١٩٣٩م جـ٢ ص٦٢٠.
(١١) **المصدر السابق** ـ ص٦٥٣، ابن كثير ١٩٣٩ **البداية والنهاية** بيروت ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م ـ جـ٥ ص٢٥٠.
(١٢) الشهرستاني، أبي الفتح محمد: **الملل والنحل**. بيروت ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م. جـ١ ص٢٤.
(١٣) ابن هشام **السيرة النبوية** القاهرة ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٥م. جـ٢ ص٦٥٨.
(١٤) الطبري تاريخ جـ٢ ص٤٥٥ ـ ٥٩.
(١٥) ابن هشام: **المصدر السابق** ص٦٥٦.
(١٦) اليعقوبي: أحمد بن أبي يعقوب **تاريخ اليعقوبي** النجف ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٤م. جـ٢ ـ ص ١١٤.
(١٧) أبو الفدا: عماد الدين اسماعيل: **المختصر في أخبار البشر** بيروت جـ١. ص١٥٦.
(١٨) ابن الوردي. زين الدين عمر: **تتمة المختصر في أخبار البشر** بيروت ١٣٨٩هـ ـ ١٩٧٠ جـ١ ص٢١٥.
(١٩) ابن الأثير ـ **الكامل**. بيروت ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م. جـ٢ ص ٢٢٤.
(٢٠) ابن هشام: السيرة. جـ٢ ص٦٥٣. الطبري: تاريخ: جـ٢ ص٤٤٢: ابن الأثير: الكامل جـ٢ ص٢١٩.
(٢١) ابن كثير: **البداية والنهاية** جـ٥ ص٢٤٤.
(٢٢) الطبري: **المصدر السابق** ـ ص٤٤٢.
(٢٣) **المصدر السابق** ص ٤٥٥ ـ ٥٩.
(٢٤) السيوطي ـ **تاريخ الخلفاء** ـ القاهرة ١٣٧١هـ ـ ١٩٥٢م. ص ٧.
(٢٥) ابن الأثير ـ **الكامل**. جـ٢ ص٢١٦.
(٢٦) ابن هشام ـ **السيرة النبوية** ـ جـ٢ ص ٦٥٠.
(٢٧) الذهبي، شمس الدين ـ **دول الإسلام**. القاهرة ١٩٧٤م. ص١٢.

(٢٨) ابن الأثير - **الكامل** جـ٢. ص٢٢٢ - ٣٣.
(٢٩) **المصدر السابق** - ص ٢٢٣.
(٣٠) ابن كثير - **البداية والنهاية** - جـ٥ - ص٢٤٧.
(٣١) **المصدر السابق** - ص ٢٤٧.
(٣٢) العقاد. عباس محمود **العبقريات الإسلامية**. بيروت ١٩٦٨. ص٢٦٢.
(٣٣) ابن خلدون، **العبر وديوان المبتدأ والخبر** القاهرة ١٣٥٥هـ ١٩٣٦م. جـ٢. ص٢٦٩.
(٣٤) الطبري. **تاريخ** جـ٢ ص٤٤٧.
(٣٥) **المصدر السابق**. ص ٤٤٧.
(٣٦) ابن الأثير - الكامل. جـ٢ ص ٢٩٠.
(٣٧) ابن عبد ربه. **العقد الفريد**. القاهرة جـ٤. ص٢٥٦.
(٣٨) ابن كثير - **البداية والنهاية** - جـ٥ ص ٢٨٥.
(٣٩) **المصدر السابق. ص ٢٤٩.**
(٤٠) **الطبري - تاريخ. جـ٢ ص ٤٤٩.**
(٤١) من آراء الشيعة المغيرية في الخلافة: انظر: الشهرستاني **الملل والنحل** جـ١. ص١٧٧.
(٤٢) الطبري - **تاريخ**. جـ٢ ص٦٢١.
(٤٣) **المصدر السابق** ص٦١٨.
(٤٤) **المصدر السابق**.
(٤٥) حسن ابراهيم حسن: **النظم الإسلامية**: القاهرة ١٦٩٢م. ص٣٢.
(٤٦) الطبري - **تاريخ جـ٣. ص٢٩٢.**
(٤٧) ابن خلدون: **العبر** جـ٢ ص ٣٦٢.
(٤٨) الطبري - **تاريخ**. جـ٣ ص٢٩٣.
(٤٩) **المصدر السابق**. ابن سعد. **الطبقات الكبرى**. بيروت ١٣٧٧هـ - ١٩٥٧م جـ٣ ص٦١. اليعقوبي، **تاريخ جـ٢ ص ١٥٠.**
(٥٠) ابن كثير: **البداية والنهاية** جـ٧ ص١٤٦.
(٥١) **المصدر السابق**.
(٥٢) ابن سعد: **الطبقات**. جـ٣. ص٣١.